التفسير

سورة الحجرات

— ١ —

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

تتناسب هذه السورة وسابقتها سورة الفتح من جهة احتواء السابقة على شرح واقعة كان فيها المسلمون يجنحون الى شيء غير ماقبله النبي صلى الله عليه وسلم فى صلحه مع مشركى مكة ، تلك واقعة الحديبية المشار اليها فى قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ) فقد اشتط المشركون فى شروطهم حتى طلبوا أن يمسح البسملة من الشروط قائلين : لا نعرف « الرحمن الرحيم » وطلبوا أن يكتب بدلها « باسمك اللهم » على عادتهم ، وأن يحذف كلمة « رسول الله » قائلين : لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك . فقبل صلى الله عليه وسلم منهم ذلك كله وغيّره ، فتذمر المسلمون ،

وكان من الشروط أن يرجع من عامه ، فشق على بعض المسلمين وقالوا : أليس قد وعد الله رسوله أن ندخل المسجد الحرام ؟ فقال أبو بكر: أوَ قال فى هذا العام ؟ والواقعة مشهورة ، والنتائج الحسنة التى ترتبت على هذا الصلح وقبول تلك الشروط معروفة . فجاءت هذه السورة عقب تلك السورة متصلتين بسبب ما ذكر .

وأيضا فقد ختمت السورة السابقة بالتنويه بشأن النبي صلى الله عليه وسلم وبيان علو درجته عند الله ، وبالثناء على المؤمنين بذكر مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل . فكان جديرا أن يعلم هؤلاء الخيرة الأبرار مايجب عليهم مع صفوة الرسل عليه الصلاة والسلام من التبجيل والاحترام .

وأما سبب نزول هذه الآية ، فقد روى فيه المفسرون عدة حوادث لا يبعد أن تكون كلها حصلت ونزلت بعدها الآية ، وسبب النزول لا يخصص عموم اللفظ المنزل ، وإنما هو يشرح شيئا من دواعى التشريع ، حتى يتبين جمال الحكم ومطابقته لمصلحة المكلفين ، ويعين على قبوله بانشراح ، ويقوى داعية امتثاله . فما ذكروه أنها نزلت فى صوم يوم الشك. وقد عرفت أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ومعنى لا تقدموا : لا تفتاتوا فى أمر من عند أنفسكم حتى تعلموا حكم الله فيه ، فالله أعلم بمصلحتكم ، وما كانت أنظاركم ببالغة من العلم شيئا مما علمه الله ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . وكم من أناس غرتهم بوارق الوهم ، فزعموا لأنفسهم كامل الفهم ، فافتاتوا على الله ورسوله يؤوّلون بأهوائهم صريح ما نزل الله ليجروه الى مزاعمهم ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن . هؤلاء وأمثالهم يدخلون دخولا أوليا وأولويا فى الخطاب بهذه الآية الكريمة ، فإنه إذا كان قد نهى المؤمنون عن التسرع فى حكم قبل أن ينزل به الوحى ، فما بالك بمن يعمد الى وحى محكم فيحاول صرفه عن دلالته المتبادرة انسياقا مع ما يظنه مصلحة محكّمة ، ولو أنه تجرد عن هوًى ملكه حتى

اتبعه ، لعقل من سر التشريع ما يوافق مصلحة البشر العامة كما أرشد اليها العليم الحكيم ، ولكنهم ممن اتخذ إلهه هواه وأضله الله .

وبدء الآية بيأيها الذين آمنوا للتنبيه الى عظم خطر ما يتلقى بعدها ، فإن الأمر العظيم يبدأ الكلام فيه بالنداء ، استرعاء لذهن السامع الى ما سيلقى عليه . واختيار صيغة « الذين آمنوا » لينبه فيهم شعور الإيمان الذى يقتضى المسارعة الى امتثال الأمر الملقى اليهم ، لأنه من مقتضى الإيمان .

وقوله : « لا تقدموا » معناه لا تبدوا رأيا أو قولا أو فعلا فى أمر ينتظر أن يقضى الله بأمره فيه . وقرىء تَقَدموا بفتح التاء والقاف بمعنى لا تتقدموا ، أى لا تتقدموا بأمر أو نحوه بين يدى الله ورسوله ، ولا تفتاتوا من عند أنفسكم قبل أن يوحى الله الى نبيه . كأن من بادر بإبداء أمر ، تقدم على منزلته التى يجب عليه أن يلزمها . وفى هذا التعبير إيضاح وجه الأدب الذى يليق بالمؤمن بالنسبة الى الله ورسوله . وقراءة تقدموا بضم التاء قد ترجع الى هذا ، فإن قدّم يأتى بمعنى تقدم ، كقولهم مقدمة الجيش للفئة المتقدمة منه . ويجوز أن يكون الفعل متعديا ، أى لا تفعلوا تقديما بين يدى الله ورسوله متعلقا ذلك التقديم بأى أمر كان .

وقوله : « بين يدى الله ورسوله » أصل كلمة « بين يدى » لبيان المكان الذى يكون أمام الشخص محصورا بين جهتى يمينه وشماله ، ولكنها توسع فيها للتقدم ولو فى الأمور المعنوية أو الأمور الزمانية ، كقولك : بين يدى الساعة . وحسن استعمالها فى هذا المقام لأنها تساعد على تهجين ما صنعوا بتصويرهم بصورة من يتقدم حساً بين يدى من هو أعظم منه مقاما ، ففى ذلك خروج عن مقام المتابعة ، وتقدم على من له حق التقدم . والإتيان بلفظ الجلالة فيه من تعظيم مقام النبى صلى الله عليه وسلم ومن تفظيع افتياتهم ما لا يخفى ، فقد جعل التقديم بين يدى الله وبين يدى رسوله سواء فى الحكم . وحاصل المعنى : لا تفتاتوا على الله قبل أن يوحى الى رسوله ويبين لكم .

أولا تفتاتوا على رسول الله قبل أن يوحى الله اليه ويبين لكم وفى إرداف ذلك بالأمر بتقوى الله تربية لداعية الامتثال لما أمروا به ، فقد جعل ذلك من تقوى الله . كما أن قوله : « إن الله سميع عليم » فيه هذا ، أى يسمع مايبدو منكم ، ويعلم ما يجول فى سرائركم ، فاخشوا عقابه ، واحذروا بطشه .

(يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول) : شروع فى بيان الأدب الواجب مراعاته فى حال مخاطبته صلى الله عليه وسلم ، فبعد أن بين لهم أنه لا يجوز الافتيات فى حكم ومسابقة بيان الله عز وجل ، أخذ ينهاهم عن تجاوز حد الأدب فى كيفية القول . وأما الأول فكان نهيا عن نفس القول الذى لا ينبغى . وإعادة النداء بيأيها الذين آمنوا للإشعار بأن هذا أيضا أمر عظيم فى ذاته ، مستقل باستدعاء العناية بشأنه . ورفع الصوت معناه الجهر به وإعلاؤه أكثر مما يصل الى سمع المخاطب . وهو يدل على قلة الاحتشام وضعف المهابة ، فإن المتهيب يخشع صوته عادة ، ولا يعلو صوت امرىء على آخر إلا عند قلة احتشامه منه وتهيبه له . ويجوز أن يكون المعنى : لا تجعلوا كلامكم هيئة كلام المترفع المتعالى فى قوله ، كما يقول الشخص لآخر : « أنا قلت لك كذا » « أنا أمرتك بكذا » ونحو ذلك من العبارات التى تنم عن الاستعلاء . وكلاهما منهى عنه فى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن كان المعنى الأول أظهر . وقوله : « ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » نهى عن مساواته عليه السلام فى رفع الصوت ، أو فى كيفية الخطاب ، بعد النهى عن رفع الصوت على صوته ، أو التعالى عليه ، فهو من باب الترقى فى التأديب .

وقوله : (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) ينبهنا الى أن من العادات ما يكون فى أول أمره محتملا وخاليا مما يتوهم فيه من جراءة على المخاطب أو استهانة بشأنه اعتمادا على ماله فى النفوس من الاجلال الموجب لليقظة والاحتراس ، ولكنه إذا تكرر حتى صار عادة مألوفة تغفل النفس عما ينبغى له من الاحترام ، وما يحسن معه من الاحتراس ،

ويلحقها التهاون ، فيجره ذلك الى عدم المبالاة ، فانّ تكرر الشيء يهون ما فيه من قبح ، فإن المرء قدير تكب مالا ينبغى فيأسف على ما صدر منه ويحترس من عاقبته ،فإذا حصل منه ذلك مرة ثانية خف الأسف والاحتراس ، فاذا ما عاوده مرارا حتى صار عادة مألوفة زال تنبهه الى آثاره وما قد يجره عليه ، فتورط فى ارتكاب أمور تلازمه عادة ولم تكن له على بال ، فيكون قوله : « وأنتم لا تشعرون » معناه أنكم اذا لم تصونوا أنفسكم من أول الأمر عن مستقبح الأعمال فستقعون بعد اعتيادها وتمكنها من نفوسكم فى شرورها التى تدهمكم بحكم الاستخفاف بارتكاب الأمر المعتاد ولو كنتم فى أول أمركم محترسين .

وقوله : «أن تحبط أعمالكم» فى موضع المفعول لأجله ، أى كراهة أن تحبط أعمالكم ، أو حذر أو خشية ، أو نحو ذلك . ومن النحويين من يجعلها على تقدير (لا) أى لئلا تحبط أعمالكم . وبعض المفسرين يقول إنه مفعول لفعل محذوف دل عليه لفظ اتقوا الله ، أى اتقوا أن تحبط أعمالكم . والحبوط : البطلان وذهاب الشيء هدرا . وبطلان الأعمال إنما يكون بالمكفرات ، وما هنا لا يكون مكفرا إلا اذا اقترن به التهاون بشأن النبي صلى الله عليه وسلم والتعالى عليه أو قصد إيذائه ، وذلك قد يدرك المرء بلا شعور منه اذا اعتاد ما يجر الى ذلك ، لأن مهابته تكون قد خفت من نفسه ، فلذلك قيل فيه : احذروا أن تتساقوا الى الوقوع فى هذا وأنتم لا تشعرون . وفى هذا تنبيه الى باب عظيم فى تربية النفس ، وهو أن التهاون بالأمر الصغير قد يجر الى الوقوع فى الكبير ، ولا يحسمه إلا سد الباب وقطع الذرائع . واعتبر ذلك فى كثير من أحكام التشريع التى جاءت الشرائع فيها بسد بابها جملة ، مع أنها فى نظر العقل قد يحتمل اليسير منها لبعض المصالح ، كالربا وبعض أنواع الميسر ، ومنها عملية (اليانصيب) ، فإن ذلك باب إذا فتح انزلقت فيه النفس من حيث لا تشعر الى ما لم يكن فى حسبانها (ومعظم النار من مستصغر الشرر) .

وها نحن أولاء نشهد فى المعاملات الربوية التى استهان الناس بالدخول فيها باعتبار

أنها أمر يسير يحتمل — نشهد ما خربت من بيوت ، وما جرت من ويلات ، وما أوقعت فيه من بلايا ومصائب ، كما نشهد من هياج النفوس وتذمر الكثير ودبيب الحقد يغلى فى الصدور حين تسحب ورقات النصيب ، فكم من ذمم تخرب ، وكم من أعراض تنتهش . فالحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

هذا واعلم أنه كما أوجب الله على المؤمنين أن يكونوا فى منتهى الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد حلاه الله تعالى وجمله بالرأفة والرحمة بالمؤمنين ، فقال تعالى فى صفته عليه الصلاة والسلام : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) وقال تعالى : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ) وقال تعالى فى أمره له وتأديبه إياه : (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) وقال : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) وذلك لكيلا تكون خدمته وطاعته صلى الله عليه وسلم من خدمة الجبارين المبنية على مجرد الخوف والرهبة ، بل سياجها المحبة واستشعار أن فى وجوده نعمة وأى نعمة . وإن أفضل أنواع الاحترام ما كان أكبر دواعيه المحبة واستشعار الفائدة من وجود المحترم . وهذا ما عليه خاصة المؤمنين الذين ملك الإيمان قلوبهم ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى)

غض الصوت أو الطرف معناه حفظه ، وأصل معنى الامتحان الاختبار ليعلم حال الشىء ، وهذا المعنى محال فى جانب الحق جلا وعلا ، لأنه عليم من الأزل بكل شىء . فالمراد به تمرين النفوس على الشىء حتى يتمكن منها ، لأن شأن الممتحن المختبر أن يجرى على من يمتحنه تجربة بعد أخرى ليعلم آخر قوته ، وهذه التجارب تفيده تمرنا وتمكنا . ويجوز أن يكون معنى الامتحان التخليص والتصفية من قولهم : امتحن الذهب بالنار إذا خلصه من الشوائب . وقوله : « للتقوى » يتعلق بامتحن ، أى أعد قلوبهم للتقوى

بالتجارب التى أجراها عليها ، فقد أجرى عليهم من المحن والتكاليف ما جعلها خالصة للتقوى .

وهذا الثناء من الله تعالى على من اتصف بتلك الصفة ، للترغيب فى امتثال النهى السابق ، وضبط النفس عن الاسترسال فيما لا يرضاه الله ، وهو من الأسلوب الحكيم فى تربية الأحكام الشرعية فى نفوس المؤمنين . ولقد كان ممن ينطبق عليهم هذا الوصف بعد نزول النهى السابق أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فقد كانا لا يكلمانه عليه السلام إلا السرار ، أى كالمناجاة السرية . وكذلك يروى أنه حين نزلت الآية السابقة جلس ثابت بن قيس فى بيته وأغلقه عليه وأخذ يبكى ، فافتقده صلى الله عليه وسلم فقال : ماشأن ثابت ؟ قالوا : ماندرى ماشأنه غير أنه أغلق باب داره فهو يبكى ، فأرسل عليه السلام اليه فسأله ماشأ نك ؟ قال : يارسول الله أنزل الله عليك هذه الآية وأنا شديد الصوت فأخشى أن يكون قد حبط عملى ، فقال صلى الله عليه وسلم : لست منهم ، ألا ترضى أن تعيش حميدا ، وتقتل شهيدا ، وتدخل الجنة ؟ فقال : رضيت ولا أرفع صوتى أبدا على صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد قتل يوم اليمامة فى حرب مسيلمة ، فكان شهيدا كما أخبر عليه السلام . وما كان رفع ثابت صوته استهانة بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فهو من خير الصحابة إيمانا ، وإنما كان فى أذنه صمم ، ومن عادة كثير ممن به صمم أن يرفع صوته ، ولكن خشيته واحتياطه لنفسه وحرصه على سلامة عمله دعاه الى هذا ، كما قالوا : إن الحريص بسوء ظن مولع .

وقد ألحقوا برفع الصوت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رفعه أمام قبره الشريف ، فإن حرمته عليه السلام ميتا كحرمته حيا . ومثل ذلك رفع الصوت فى مجلس الحديث الشريف . وليس ببعيد إلحاق مجالس العلم النافع بهذا فى منع رفع الصوت الموجب للإيذاء وقطع التفكير حيث كان من العلوم النافعة .

وعلى الجملة فالآية تعطينا أدبا فى المخاطبة مع من له منزلة التعظيم ، وأن خطابه

ينبغى أن يكون بقدر ، وأن الإساءة فى كيفية أداء الخطاب لا تنزل عن الإساءة فى نفس الخطاب . ولقد يحسب بعض الناس أن رفعهم الصوت فى خطاب نظرائهم أو من هم أعلى مقاما منهم يكسبهم رفعة وعلو قدر ، ويكتفون بهذا الصخب عن أن يقوّموا حجتهم ويصححوا فكرتهم ، وإذا بهم لا يزدادون بهذه الرذيلة إلا حطة ومقتا. وأسوأ حالا منهم من يعمد الى هجر القول وإغاظة مخاطبه ليكسب منه الحجة بلا وجه حق ، زاعمين أنهم بذلك ينتصرون ، ولكن لا تلبث الأمور أن تنكشف وقد باءوا بالخزى والمذام وهم لا يشعرون . وإنك لتجد فى قوله تعالى : « امتحن الله قلوبهم للتقوى » إشارة دقيقة الى ما ينبغى مراعاته والتفطن له فى أدب الخطاب ، وأن ليس الأمر كما يبدو للناظر لأول وهلة من زعم غلبة أو إحراز نصرة ، وإنما هو أدق وأخفى . والعبرة بالجوهر الرزين لا بالصلصلة الجوفاء ، فهذا هو امتحان النقى من الزائف .

ثم قال تعالى : (لهم مغفرة وأجر عظيم) وفيه من الثناء عليهم وإخماد ما صدر منهم ما يرغب فى الاقتداء بهم واقتفاء سننهم . والمغفرة : ستر الذنب بإزالة أثره من العقوبة . والأجر العظيم : ما يمنحه الله عباده من الثواب المقيم فى دار النعيم .

قال تعالى : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم) :

اتصالها بسابقتها ظاهر واضح ، فقد أثنى فى السابقة على من يغض صوته عند رسول الله ، وذم فى هذه من لا يرعى حقوق الأدب معه عليه السلام .

وسبب نزولها أن قوما من بنى تميم وفدوا على المدينة وجاءوا المسجد وقد أذن للظهر والناس ينتظرون خروجه صلى الله عليه وسلم للصلاة ، فلم ينتظروا مع المنتظرين ، بل أخذوا ينادون : يا محمد اخرج لنا يا محمد اخرج لنا ، وكان ذلك بصوت جاف ، فخرج صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن مدحنا زين وإن شتمنا شين . فقال عليه السلام : بل مدح الله تعالى زين وشتمه شين . فقالوا : إنا جئنا نفاخرك ، وذكروا من مفاخرهم ،

فأمر عليه السلام ثابت بن قيس فرد عليهم مفاخرهم فكان أبلغ منهم ، ثم قام شاعرهم ، فأمر عليه السلام حسان بن ثابت فرد عليهم ، فقال قائلهم: إن هذا الرجل لمؤتى له(١) لخطيبه أخطب من خطيبنا وشاعره أشعر من شاعرنا ، وكان خطيبهم عطارد بن حاجب وشاعرهم الزبرقان بن بدر ، وقد أسلموا بعد ذلك ، وأجازهم عليه السلام بصلات وأحسن جوائزهم ، وكانوا من المؤلفة قلوبهم . ففيهم نزلت هذه الآية . قيل كان مجيئهم للتفاخر ، وقيل بل جاءوا يفتدون أسرى لهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ كان أرسل اليهم سرية أسرت منهم . ومعنى « وراء » خلف . وقد يطلق بمعنى أمام ، كقوله تعالى : « وكان وراءهم ملك » ومن أهل اللغة من يقول : معنى وراء : ما توارى عنك واختفى ، سواء أكان خلفا أم أماما ، فيكون مشتركا معنويا بين الخلف والأمام . وأما على الأول فمشترك لفظى . والحجرة : اسم للمكان المحجور لا يُدخل إلا بإذن صاحبه . والنداء من وراء الحجرات يقتضى أن يكون المنادِى خارجها والمنادَى داخلها ، كقولك : كلمته من وراء الباب . أما بحذف من فلا يدل على ذلك ، فتقول : ناديته وراء الحجرة أو وراء الباب وكلاهما خارجها . وقوله : « أكثرهم » يعطى أن منهم من لم يكن راضيا ، أو الأكثر معناه الجميع ، كما قد يدل لفظ القليل على العدم فى مثل قولهم : فلان قليل الحياء ، يريدون لا حياء عنده . ومعنى « لا يعقلون » أنهم لا يعملون ما يقتضيه العقل ويليق بالعقلاء ، وليس معناه أنهم لا عقل عندهم أصلا .

وإن فى جفوة الخطاب من الوافد المحتاج لدلالة على حمقه وابتعاده عن نيل مقصده الذى له جاء ، فمن كان مجيئه لافتداء أسراه أولى به أن يكون أدبه خيرا من لفظه ؛ ومن كان إتيانه للمفاخرة من حقه أن يكون فيه من كرم الخلق وحسن الأدب ما تظهر به مزيته ، وليست جفوة الخطاب فى شىء من هذا ولا من ذاك ، كيف وقد كان النداء بهذه الجفوة ملابسا لوجوده عليه السلام فى حجرته ، وهو مكان يوجب الأدبُ مراعاة

(١) أى لذو حظ .

حرمته واحترام خلوته . وما أحسن ما أدبنا أسلوب الكتاب العزيز فى قوله تعالى : « أكثرهم لا يعقلون » ؛ ولعل المراد كلهم ، وإنما أتى بهذا كأنه على أسلوب الأدب العربى فى مثل هذا ، من الاحتياط بنسبة هذا التهجين للأكثر ، مع أنه فى الحقيقة صادر عن الكل ، فكأن فى مراعاة أدب الاحتياط الخطابى ردا عليهم بأدق إشارة ، وتعليمهم كيف يكون أدب الخطاب .

(ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم) :

بعد ما نعى عليهم فعلهم ، أرشدهم الى ما كان ينبغى لهم بطريق الصراحة . وكلمة « حتى » تغاير لفظ «الى» وإن كانت كلتاهما لانتهاء الغاية : بأن حتى تستعمل فيما هو غاية بنفسه وإن لم يجعله جاعل ، وأما الى فتستعمل فى النهاية الطبعية أو الجعلية ، يقال: سهرت الليلة حتى آخرها أو الى آخرها ؛ ويقال : سهرت الليلة الى نصفها ، ولا يقال فى الفصيح : حتى نصفها ، فكان اختيار لفظ حتى للإشارة الى أن خروجه عليه السلام اليهم هو الغاية الطبيعية لصبرهم ، فكان حقهم أن يفهموه بأنفسهم . وضمير كان فى قوله : « لكان خيرا لهم » يرجع للصبر ، وهو ظاهر . وقوله : « والله غفور رحيم » تلطف بعد الإرشاد ، حتى يجعل له الطريق مفتوحا للإنابة ، فقد بلغت الهداية مبلغها . ولقد أسلموا وقال صلى الله عليه وسلم للأقرع بن حابس حين قال له أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله : لن يضرك ما كان قبل هذا .

وإن من تمام الحكمة فى الهداية أن يردف الترهيب بالترغيب ، وأن يكون التلطف فى الآخر بعد ملء قلب المدعو بالرهبة فى الأول إذا دعت الحاجة الى الإرهاب ، وذلك لتكون الإجابة المنشودة سليمة من مطاوعة العنف ، ولابسة ثوب الاختيار والرغبة ، فإنها أخف على نفس المدعو وأشرف لموقفه . ولقد كان يغلب على نفس العرب معنى الإباء فيشق عليهم مطاوعة الإرهاب ، حتى إذا ملكوا حريتهم أجابوا لما دعوا اليه عن طريق الطواعية . ولا نزال نشاهد ذلك فى ذوى الشمم والنفوس الأبية . فلتكن

الدعوة الدينية محلاة دائما بما يحفظ على المدعو كرامته ، وإن تلبست أحيانا بالشدة فلتكن على قدر محدود ، واعتبر ذلك فى قوله تعالى لموسى وهرون عليهما السلام حين بعثهما لفرعون: (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ) وليس هذا من المداهنة الممقوتة المزرية ، وإنما هو من الحكمة المطلوبة المجدية .

وفقنا الله الى مافيه رضاه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ابراهيم الجبالى

المرء بأصغريه

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

قدم وفد الى عمر بن عبد العزيز فى أول خلافته ، فتقدم فتى منهم حدث السن ليتكلم عنهم ، فقال عمر : ليتقدم من هو أسن منك . فقال الفتى : يا أمير المؤمنين لو أن الأمر بالسن لكان فى المسلمين من هو أحق بكرسيك هذا . ولكن المرء بأصغريه : قلبه ، ولسانه . فقال عمر : تكلم فانى أراك تبين عن لسان وجنان ، فقال الفتى : لقد جئنا اليك ياأمير المؤمنين ولسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة ، لسنا وفد الرغبة فقد دخلت علينا رغائبك فى بيوتنا ، ولا وفد الرهبة فقد أمنا بعدلك من حيفك . قال عمر : فوفد ما ذا أنتم ؟ قال : نحن وفد الشكر ، جئنا لنشكر اليك الله الذى وكل أمور المسلمين الى إمام عادل مثلك . فأدرك عمر هزة الارتياح ، وكان يصطفى لمجالسته عالما ناصحا صالحا ، فقال جليسه هذا : يا أمير المؤمنين لا يغلبن جهل القوم بك علمك بنفسك . فانكمش عمر حتى كاد تتقلص أضلاعه وقال : لا أحرمنى الله من جليس صالح مثلك . ثم صرفهم مكرمين .